ظاهرة الوساطة في المجتمع المرابطي

"دورأبو عبد الله بن أبي الخصال أنموذجًا"

Mediation phenomenon in the Almoravid community

"the role of Abu Abdullah bin Abi Al-khasal as a model"

طاهري أمحمد

جامعة البليدة 02،مخبر الدّراسات المتوسّطية عبر العصور(المدية)

tahrimhamed1981pr@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2020/04/16	تاريخ القبول:2020/06/23	تاريخ النشر: 2020/07/30

الملخص:

إنّ مسعى هذا المقال هو دراسة ظاهرة الوساطة في المجتمع المرابطي،من خلال التّركيز على الرسائل التي بعثها أبو عبد الله بن أبي الخصال للسلطة الحاكمة،والتي كان الغرض منها التوسّط لبعض فئات المجتمع المرابطي من العامّة والخاصّة تحقيقًا لمـــآربها،ونظرًا لأهمية هذه الإشكالية فقد حاولنا تتبعها من خلال توضيح مفهوم الوساطة ودوافعها،وتبيان مكانة فئة الوزراء والكتّاب،لنعرّج على ترجمة شخصية بن أبي الخصال،ونصل إلى تبيان دور بن أبي الخصال في التوسّط لفئات المجتمع.

لنخلص في النهاية على التأكيد على أصالة الظاهرة وتجذّرها في المجتمع،فما كانت رسائل الوساطة لإبن أبي الخصال إلا دليلٌ على اتّساع الهوة بين الحاكم والمحكوم،ومدى التذمر التي تحمله الرعية من السلطة الحاكمة،ممّا جعلها تسعى للوزراء والكتّاب لقضاء الأغراض وبلوغ المقاصد.

الكلمات المفتاحية: الوساطة؛المجتمع؛الدّولة المرابطية؛أبو عبد الله بن أبي الخصال.

Abstract:

The endeavor of this article is to study the phenomenon of mediation in the Almoravid community, by focusing on the messages sent by Abu Abdullah bin Abi Al-Khasal to the ruling authority, which were intended to mediate for some groups of the Almoravid society from the public and private. For the importance of this problem, we have tried to track it by clarifying the concept of mediation, and its motives, and by clarifying the social rank of the category of ministers and writers. Then we recite the biography of the personality of Ibn Abi Al-Khasal, and we show his role in mediating.

Finaly, we can say that this phenomenon existed long time ago. These mediation messages of Ibn Abi Al-Khasal are clear evidences of the widening gap between the ruler and the ruled, and of the extent of complaint carried by the population about the authority, which made it seek the mediations of the ministers and writers to achieve their purposes and reach their goals.

Keywords: Mediation; Society; Almoravid State; Abu Abdullah bin Abi Al-Khasal.

1.مقدّمة:

لا شك أنّ التمايز الطبقي والتفاوت الإجتمـاعي الذي عرفه المجتمع المرابطي،قد فرضته سياسة الدّولة القائمة على تدعيم نفوذ الفقهاء،والتي منحت لهم صلاحياتٍ وتفويضاتٍ واسعة،ممّا جعلها تنغمس في جمع الثروة والبحث عن المناصب،إضافة إلى اعتمادها على قاعدة الجهاد الحربي،التي تتطلّب تكاليـفًا لا تفي غرضها إلاّ بكثرة الدخل.

هذه الأحوال الإجتماعية قد خلقت نوعًا من المنافسة الشديدة بين أهل الحلّ والعقـد،في تسلّق غمار المناصب السّياسية على حساب مصالح الرعية،وفتحت مجالاً واسعًا للعديد من فطاحل العلمـاء والأدباء في تبوّء مراتب عليا في هرم السلطة،والتي نعتقد أنّ البعض منهم قد سدّد خُطـاه لخدمة الطبقات الإجتماعية المحرومة وإلتماس الرعاية لها.

ومن الأهمية بما كان،أن يكون لأبي عبد الله بن أبي الخصال الوزير والكاتب دورٌ بارزٌ في التوسّط لهذه الفئات لدى السلطة الحاكمة،بحكـم تدهور الوضع الإجتماعي وظفره بلقب ذي الوزارتين لدى السلطة المرابطية،ناهيك عن تذمر الرعية من عدم تحقيق مطالبها المختلفة،وانشغال الحـكام بأمور بعيدةٍ عنها،ممّا ينبئ ببروز إرهاصات زوال الدّولة.

على ضوء ما تقدم،تبدو لنا أهمية رسائل الوساطة التي بعثها ابن أبي الخصال إلى السـلطة الحاكمة في إبراز الواقع الإجتماعي لدولة الملثّمين ومدى تحكّمها في الطبقات الإجتماعية،وقدرتها على تحقيق مطالبها،والتي ما فتأت تعرف انحطاطًا كبيرًا فرضته الأوضاع السّياسية والإقتصادية والإجتماعية وحتى الدّينية التي عجّلت بسقوطها.

وبذلك فإنّ هذا العمـل،هو محاولةٌ منا لإبراز دور أبو عبد الله ابن أبي الخصال كوسيط ومصلح إجتماعي بين السلطة ومختلف الفئات الإجتماعية المتذمرة من العامّة والخاصّة،لذا كان الغرض من هذه الدّراسة هو التأصيل لظاهرة الوساطة في المجتمع المرابطي،والتي نعتقد أنّها لم تنل حظّها من الدّراسات التّاريخية،انطلاقا من الرسائل الديوانية والإخوانية لإبن الخصال كنموذجٍ قلّ نظيره،حيث حملت رسائله في مكنونها دلالات تاريخية هامّة ذات طابع سياسي واجتماعي واقتصادي عن المجتمع المرابطي ما يحتاج للبحث والدّراسة.

ولعلّ هذا الأمر هو ما يدفعنا إلى طرح إشكالية رئيسية نحاول الإجابة عنها:هل عرف المجتمع المرابطي ظاهرة الوساطة؟وهل تحمل رسائل بن أبي الخصال دلالةً على وجودها؟هل كان لإبن أبي الخصال دورٌ في الوساطة الإجتماعية بين السلطة الحاكمـــة والرعيـة؟وماهي أهم الفئات الإجتماعية التي توسّط لها؟.

وللتفصيل في هذه الإشكالية كان لابد من تحديد مفهوم الوساطة وتبيان دوافعها؟مع الوقوف على مكانة الوزراء والكتّاب مقارنة بالفئات الإجتماعية المرابطية؟ لنركّز على شخصية أبو عبد الله بن أبي الخصال وابراز دوره في التوسّط لفئات المجتمع المرابطي من خلال عرض وتحليل رسائله الديوانية التي توسّط بها لقضاء حوائج العامّة والخاصّة بالمغرب والأندلس؟.

2. ظاهرة الوساطة (المفهوم والد وافع):

جاء في معاجم اللّغة أنّ لفظ الوساطة مشتقٌ من الفعل وَسَطَ أو وَسُطَ،ومعناه التوسّط لشخصٍ في الحسب لقومه،ويقال فلانٌ وسيطٌ في قومه أي أنّه أوسطهم نسبًا وأرفعهم مجدًا[1]،وبذلك تصبح الوساطة هي ذلك العمل الذي يقوم به المرء نيابةً عن قومه في اصلاح الأمور،وتقريب وجهات النّظر بين المتخاصمين،لذا فقد شملت عدّة مجالاتٍ؛فقد يكون المرء وسيطًا في تجارةٍ أو صلحٍ اجتماعي أو غير ذلك من أمور الدّنيا؛وبذلك فإنّ نوع الوساطة مرتبطٌ بطبيعة الحاجة الذي يريد الفرد قضائها،وهذا ما لمسناه من خلال رسائل بن أبي الخصال التي تنوعت مواضيعها ومقاصدها.

والملاحظ أنّ مهمّة الوسيط هي عادةً ما تشبه السفارات التي يتولاّها ديوان الرسائل،الذي يشرف عليه مَهَرةُ الكتّاب ممّن يمتلك البلاغة الأدبية والحسّ المرهف في التعامل مع الآخرين،لغرض توصيل الخبر بشكلٍ لائقٍ أو اقناع طرفٍ آخر لهدفٍ محدّدٍ،أو تقمص شخصية الوسيط في حلّ المشاكل المستعصية،لذا فقد كانت مهمّة الوسيط تخضع لشروط علمية موضوعية[2].

ومن هنا فإنّ هذه الظاهرة لم تكن مقتصرةً على المرابطين فقط،بل وجدت حتّى في مراحل متقدّمة ومتأخرة،ونذكر منها ماقام به الفقيه علي بن محّمد بن خليل الإشبيلي(ت567هـ/1171م) زمن الموحّدين،الذي توسّط لطالب علم لدى حاكم سجلماسة لقضاء حاجة له،وتواصلت أيّام المرينيين عندما توسّط الشيخ أبي زكريا نيابةً عن سلطانه يوسف الأوّل سلطان بني الأحمر،لدى السلطان المريني أبي عنان،في رسالةٍ له بتاريخ752هـ/1351م،والتي احتوت على تزكيةٍ لأحد الولاّة جاء بها الكثير من المدح والتّزكية لسيرته الحميدة[3].

وبذلك فإنّ دوافع الوساطة تختلف من عصرٍ الى آخر،ومن شخصٍ لآخر،حسب الغرض الذي يريده الفرد من خلال الوسيط،حيث يورد بن أبي الخصال زمن المرابطين عددًا كبيرًا من أفراد الرعية الذين توسّط لهم،والذين ينتمون إلى جميع أفراد الرعية سواءًا من الطبقات العليا أو الدّنيا.

والظّاهر أنّ السبب الرئيسي لهذه الظاهرة يرجع إلى ذلك التمايز الطبقي والتفاوت الإجتماعي في المجتمع المرابطي،حيث انقسم إلى عدّة طبقاتٍ متفاوتةِ الحضوض في الحصول على الثروة والأرض والوظيفة،ولعلّ هذه الفوارق تكون أكثر حضورًا بالمدن عكس البوادي،وهذا ماولّد شرخًا كبيرًا بين الفقراء والأغنياء[4]،ويضيف أحدهم أنّ الدّولة المرابطية هي المتسبب الأكبر،نظرًا لميلها للعنصر المرابطي على حساب الفئات الأخرى،وهذا ا أكّده بقوله:"إنّ الرئيس يستحي أن يحاسب في عَمَلِهِ مرابطيًا،أو يُنكر عليه شيئًا ممّا قد فشا له عنه،في الخطّة التي ولاّه"[5].

وبذلك فإنّ هذا التفاوت هو ما يزيد من حدّة التسابق في قضاء المصالح بين أفراد الرعية،ممّا يدفع الضعيف منهم لمناوئة بعض الأفراد ممّن يملكون نفوذًا لدى السلطة لقضاء حوائجهم،فكانت فئة الوزراء والكتّاب من أهم هذه الطبقات التي لعبت دور الوسيط في نقل انشغالات الرعية إلى السلطة،ناهيك عمّا كانت تعانيه هذه الأخيرة من ضعفٍ داخليٍ وخارجيٍ يجعل قضاء المصالح صعبًا.

ومن هنا فإنّ ظاهرة الوساطة تزيد وتيرتها زمن الضعف والوهن الذي يصيب الدّولة،عكس المراحل الأولى التي تتميّز فيه بالقوة ونبذ الظلم،ولعلّ هذا الوضع هو ماشجع الدّعوة التومرتية إلى تبني سياسة الإصلاح الدّيني والسّياسي،متّخذة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة لتقويض نفوذ المرابطين[6].

3. مكانة الوزراء والكتّاب في المجتمع المرابطي:

تكاد تتّفق معظم الدّراسات التّاريخية على أنّ المجتمع المرابطي مجتمعٌ تسوده الطبقية؛نظرًا لمجموعةٍ من العوامل المرتبطة بأصل نشأة الدّولة الذي اعتمدت على إقتصاد المغازي؛ممّا يتطلب أموالاً ضخمةً لبناء الدّولة،ولعلّ هذا الأمر هو مادفع السلطة الحاكمة لزيادة وتيرة جمع الإيرادات من الرعية بصفةٍ مستمرةٍ،ما جعلها رهينة الإستبداد من طرف الفئات العليا المكونة للطبقة الحاكمة،ناهيك عن تركز الثروة من المال في يد فئة معينة شجعت الإقطاع الزّراعي،ممّا ولد شرخًا واسعًا بين الفئات الإجتماعية،فكانت فئة الوزراء والكتّاب التي تندرج في عموم حاشية السلطة،من أهم الفئات المحبة لجمع المال والثروة واستغلال النفوذ عن طريق الوظيفة[7].

الظّاهر أنّ هذه الفئة قد كانت مرتكز الدّولة في عمليات تسيير الحكم؛نظرًا لشرف المهنة وأصالتها التي ترتبط بخطّة الكتابة والقلم،ممّا يؤدي إلى الإختلاط المستمر بالسلطة الحاكمة،فكان الكتّاب من أهم الفئات المقرّبة للسلطة،حيث كان يُختار بناءًا على مجموعةٍ من الشروط،تتّصل بأرفع طبقات المجتمع،ناهيك عن علمه ومروئته وحشمته والآداب والأخلاق الفاضلة وحسن مجالسة الحكام والملوك[8].

وبذلك فقد حاز كتّاب الدّولة المرابطية على مكانةٍ هامةٍ لا تقل أهمية عن الوزراء والعلماء والفقهاء؛لكون الكثير منهم قد جمع بين الكتابة والوزارة أيّام المرابطين،والتي لا تؤول لصاحبها إلاّ إذا كان عالمًا عارفًا متبحرًا في الرسائل السلطانية والإخوانية،وعلى قدرٍ كبيرٍ من البلاغة والحجّة الكلامية،ومن هؤلاء الذين جمعوا بين الوزارتين نذكر: أبو العبّاس أحمد بن عبد الملك بن عمر بن شُهيد(ت426هـ/1034م)،وأبو القاسم محمّد بن عباد (ت433هـ/1041م)[9]،وربّما

كان أشهرهم أبو بكر محمّد بن سليمان المعروف بإبن قصيرة(ت508هـ/1114م)،الذي تولّى الكتابة والوزارة زمن يوسف بن تاشفين(ت500هـ/1106م)الذي قرّبه منه وجعله على دواوينه ورفع من شأنه حتى أنساه زمانه[10].

حيث تميّزت هذه الفئة بثراءٍ كبيرٍ نظرًا لكثرتهم زمن علي بن يوسف المرابطي(ت537هـ/1142م)،الذي استكثر منهم ببلاطه خاصّة بالعاصمة مراكش التي شهت أيّامها ببغداد العراق[11]،وبذلك فقد استطاع هؤلاء جمع ثروةٍ كبيرةٍ من المال وعدد من الإقطاعات والقصور؛نتيجة الهبات التي مُنحت لهم من طرف السلطة و الرعية،ولعلّ هذه المكانة قد جلبت لهم حقد الرعية التي وصفتهم بالخبث والخديعة والمكر،ناهيك عن كتّاب الأندلس الذين كان لهم كراهيةٌ ضدّ البلاط المرابطي،ومنهم بن أبي الخصال الذي فجّر عضبه ضدّ السلطة بتحالفه ضدّهم ودعمه للثوار،فكان قلمه سليطًا عليهم خاصّة زمن علي بن يوسف المرابطي(ت537هـ/1142م)[12] .

4. شخصية بن أبي الخصال:

1.4 حياته ونشأته:

يتّصل نسب أبو عبد الله محمّد بن أبي الخصال ذو الوزارتين،بمسعود بن طيب بن فرج بن خُلصة الغافقي الأندلسي،وقيل:أنّ خُلصة هو جدّه المكنّى أبا الخِصال،وبذلك فقد اتّصل لقب أبيه وجدّه على ما ذكره صاحب المعجم[13]،ويذكر ابن حزم أنّ الغافقيين قد تجمهروا بالجوف شمال قرطبة[14]،ومنهم بن أبي الخصال الذي ينتمي إلى قبيلة غافق[15]من أسرة فُرغُليط[16]من جهة شقُورة[17] التابعة لكورة جيّان[18].

ولد أبو عبد الله بن أبي الخصال سنة465هـ/1072م[19]،حيث تردد على طلب العلم والمعرفة واستبحر في الأدب واللّغات بمسقط رأسه[20]،كان لأبي الخصال شقيقان،أحدهما عبد الله بن مسعود ابن أبي الخصال المكنّى بأبي مروان بن أبي الخصال(ت539هـ/1144م)،والذي كتب لعلي بن يوسف بن تاشفين(ت537هـ/1142م)،رفقة أخيه أبو عبد الله،ولكنّه عزل بسبب رسالته المشهورة التي استهجن فيها الدّولة اللّمتونية[21]،وأخوه الثاني أحمد بن مسعود بن أبي الخصال المكنّى أبوجعفر الشقُوري الفُرغلاطي،والذي سكن قرطبة رفقة أخويه أبي عبد الله وأبا مروان،حيث كان من أهل الفقه وتولّى خطّة الأحكام وارتسم بها[22]،كما كان لأبي عبد الله ابنٌ نابه هو عبد الله بن محمّد بن مسعود وكنيته أبو مروان،والذي قتل سنة530هـ/1135م[23].

انتهل بن أبي الخصال علومه الأولى بقريته،التي تلقى فيها العديد من العلوم،ثمّ تردّد على عددٍ من المدن الأندلسية المجاورة طلبًا للإستزادة وبخاصّة الحاضرة قرطبة[24]،لذا فإنّ ما بلغه بن أبي الخصال من حُظوةٍ علميةٍ لدى العامّة والخاصّة؛مردّها إلى تبحره في عديد العلوم والمعارف وانتهاله من منابع المعرفة المختلفة،التي راجت أيّام الدّولة المرابطية بالمغرب والأندلس،ولعلّ شهادات أهل عصره أصدقُ حديثًا على ثقافته الغزيرة،حيث وصفه ابن بشكوال بقوله:"...كان مُتفنّنًا في العلوم مُستبحرًا في الآداب واللّغات...وكان بليغًا عالمًا بالأخبار ومعاني الحديث والآثار والسّير والأشعار..."[25].

والظّاهر أنّ هذه المكانة التي تسلق غمارها دون وساطةٍ نابعةٌ عن طبعٍ،طُبع عليه،ومن ذلك ما ذكره ابن بسام قوله:"...فقد تميّز بنفسه وتحيّز من جنسه،والذي ألحقه بالمجد وأوقفه بمكان النّجد،ذكاءٌ طُبع عليه ونجمٌ في قُربة النّباهة غربه ونبعُه..."[26]،كما جمع في سريته عدّة صفات أخرى فهو"...آخر الكتّاب وأحد من انتهى إليه علم الآداب..."[27].

ومن هنا فقد كان لأبي الخصال ثقافةٌ واسعةٌ استمدّها من القرآن والسنّة ومعرفة بالتّاريخ والأدب واللّغة والسّياسة،وبذلك فإنّ فقدانه قد كان له أثرٌ جليٌ في زعزعة مسار الثقافة مغربًا وأندلساً،فكيف وهذا ابن الأبّار قد تحسّر على فقدانه قائلاً:" وأمّا البلاغة فإليه انتهت،وعليه قصرت،وبموته فُقدت"[28].

خلّف ابن أبي الخصال ثروةً علميةً قيّمة تأليفًا وتصنيفاً،نظرًا لما أفاضت به قريحته في هذا المجال،حيث أشار ابن بشكوال إلى كثرة تواليفه قائلاً:"...له تآليفٌ حسانٌ،ظهر فيها نُبله واستبان بها فهمه..." [29]،والحقّ أنّ براعة بن أبي

الخصال قد برزت بشكلٍ واضحٍ في المجال الأدبي وخاصّة الرسائل الديوانية وفي هذا السياق يشير صاحب المعجب بقوله:" ولأبي عبد الله هذا ديوان رسائل يدور بين أدباء أهل الأندلس قد جعلوه مثالاً يحتذونه ونصبوه إمامًا يقتفونه"[30]،وبذلك فقد تنوعت تواليفه ما بين الأدب والدّين والرسائل والقصائد والمناقب[31] .

2.3 نشاطه السّياسي وعنايته بالرسائل الديوانية:

كان أوّل اتصال لكاتب الأندلس بالخدمة السلطانية،أيّام مصاحبته لمحمّد بن الحاج(ت508هـ/1114م)والي قرطبة[32]زمن علي بن تاشفين(ت537هـ/1142م)،حيث كان ألصق وزرائه وكتّابه،وقد اختص بولده أبي يحي أبي بكر بن أبي عبد الله،حتى وَسَمَهُ بذي الوزارتين،وتشير بعض الروايات أنّ بن الحاج كان خاملَ الذّكر عاطلَ الفكر،مقارنةً بكاتبه بن أبي الخصال[33].

والظّاهر أنّ هذه الصحبة قد دفعت بن أبي الخصال إلى تورّطه في فتنة قرطبة سنة500هـ/1106م،حيث وقف إلى جانب ابن الحاج،ممّا أدى إلى تراجع مكانته،وهذا ما أشار له صاحب القلائد قوله:" ولم يزل عاثرًا معه ومُستقلاً...إلى أن تورّطوا في تلك الفتنة...فطمعوا أن يختالوا من أمير المسلمين مُلكًا معصوماً"[34].

وممّا تجدر الإشارة إليه،أنّ بن أبي الخصال قد أظهر بارعةً وحنكةً وبلاغةً في الردّ على مراسلات علي بن يوسف(ت537هـ/1142م)،إلى أنْ ورد لهم كتابٌ راعهُم،واستدعي بن أبي الخصال للمراجعة فأبان عن الغرض،فحمل ابن الحاج استحسان ما كتبه ولقبه بذي الوزارتين،فخرجت عليه لقباً وأضحى بها مشهورًا،وصار مُرتسمًا في العلية ومُتّصفاً بتلك الحلية[35].

ورغم فشل ثورة بن الحاج بقرطبة،إلاّ أنّ بن أبي الخصال زاد تعلّقاً به،حيث عفا علي بن يوسف(537هـ/1142م) عن بن الحاج لما قدّمه من أعمال جليلة المقدار للدّولة المرابطية،فأرسله إلى فاس ولزمه كاتبنا وطائفة ممّن كان معه[36]،انتقل بن أبي الخصال إلى الأندلس ونزل بسرقسطة [37]أمّ الثغر الشّرقي رفقة بن الحاج،حيث أشار صاحب المعجم بذلك قوله:"...ثمّ إنّهم انتقلوا بانتقاله إلى سرقسطة أمّ الثغر الشرقي حين حلّها ذاباً عن أرجائها،ومُجاهدًا لأعدائها حلول البّر النقي..."[38].

ويبدو أنّ بن أبي الخصال لم ينعم برخاء العيش،فسرعان ما أصابه أمرٌ جللٌ بوفاة صاحبه،ممّا جعله متحسّرًا على فراقه،وجعله يبتعد عن الكتابة الديوانية ومخالطة الحياة السّياسية،وهذا ما يؤكد عمق الصلات بينهما حيث لزم داره خائفًا متحسّرًا[39]،ويضيفُ المراكشي أنّ بن أبي الخصال قد آثر العودة للكتابة السلطانية،بعدما استدعاه الأمير المرابطي علي بن يوسف(ت537هـ/1142م) للخدمة ببلاطه[40]،وفي هذا السياق فقد حظي كاتب الأندلس بمكانةٍ لديه،حيث كان أنبه كتابه وأكبرهم مكانةً بشهادة صاحب المعجب الذي يقول في حقّه:".. وحُقّ له ذلك إذ هو آخر الكتّاب وأحد من انتهى إليه علم الآداب"[41].

وبتتبّع النّصوص فإنّ علاقته بعلي بن يوسف(ت537هـ/1142م) قد تدهورت مرّة ثانية،ومن ذلك ما كان لأخيه أبا مروان،الذي كانت له رسالةٌ شديدةُ اللّهجة،ناقدةٌ لأحوال المرابطين وسياستهم،وهي رسالة طلب كتابتها الأمير المرابطي لجنده في بلنسية يوبّخهم على التواكل والتخاذل ضدّ ابن رذمير الذي قتل من الجند العرب مقتلةً عظيمةً،ممّا دفع عليًا لعزله وتأنيب أخيه أبو عبد الله بن أبي الخصال قوله: "...كُنا في شكّ من بُغض أبي مروان للمرابطين والآن صحّ عندنا..."[42]،ويضيف المراكشي أنّ بن أبي الخصال أبو عبد الله قد أنف ممّا قيل لأخيه،فطلب الإستعفاء فأعفاء،وقفلَ راجعًا لقرطبة بعدما مات أخوه بمراكش،وأقام أبو عبد الله بقرطبة حتى استشهاده بها أيّام الفتنة[43].

تكاد تجمع المصادر التاريخية على أنّ تاريخ وفاة بن أبي الخصال،صادف يوم الأحد 12 ذي الحجة540 هـ/1145م أيّام الهرج الذي أصاب قرطبة[44]،بيد أنّها تختلف في ذكر مُلابسات استشهاده،حيث يشير صاحب المعجم على أنّه قتل عُنوةً بداره حيث كان واقفًا،من طرف المصامدة ودفن بمقبرة ابن عبّاس[45]،ويضيف ابن الأبّار أنّ شيخه أبو

الحسن علي بن محمّد بن الحريق(ت622هـ/1225م)[46]قد شهد قتله من طرف أحد المصامدة المسمّى تِيفُوْت حتى أنّه عرف بقاتل بن أبي الخصال،لذا كان شديد الإفتخار بها،إلاّ أنّه أخذ جزاؤه[47]،أمّا المراكشي فيذكر أنّه استشهد بداره بقرطبة الكائنة على المرابطين دون أن يُحدّد تاريخ ذلك[48].

وفي نفس السياق،يُضيف ابن الخطيب روايتين في هذا،ذلك أنّه توفي أيّام الهرج بقرطبة بعدما أُلفي مقتولاً أمام داره بالمدينة،وقد سُلب ماكان عليه بعد نهب داره،واستيصال حاله وذهاب ماله[49]،وفي رواية ثانية أنّه قتل بدرب الفرعوني قرب رَحبة أَبَانْ بداخل مدينة قرطبة،حيث قتله المصامدة رجال أهل دولة اللّثام لحُسن مَلبسه ولم يعرفوه[50].

5. دور أبو عبد الله بن أبي الخصال في التوسّط لفئات المجتمع المرابطي:

لا شك أنّ الرسائل الديوانية من أهم الوثائق الرسمية التي تحمل في طيّاتها العديد من الإشارات المتنوعة ذلك أنّ هذا النوع من الرسائل يمكن أن يميط اللّثام عن كثيرٍ من الظواهر الإجتماعية التي انتشرت بالمجتمع المرابطي،والتي يمكننا من خلالها أن نعطي لها تفسيرًا أو مرجعيةً لأسبابها،وتطوراتها والتنبّؤ بنتائجها إن امكن.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ عصر بن أبي الخصال قد كان غنيًا بالعديد منها،ونخصّ بالذّكر ظاهرة الوساطة في العصر المرابطي،التي عرفت رواجًا وإقبالاً من العامّة و الخاصّة.

وقبل الإستطراد في ملامسة هذه الظاهرة،وُجب التنويه بالظروف المحيطة بها،ذلك ما كانت عليه الدّولة اللّمتونية من تدهورٍ لأحوالها،وكثرة المتربّصين بها والمنشقين عنها،وكان ذلك عقب تولي أمراء ضعاف أسندوا ولاية الأمور لنسائهم وتغافلوا عن الرعية واشتطّوا في جمع الأموال وجبايتها،إلاّ أنّ ذلك لايمنع من وجود فترات عرفت فيها الدّولة نوعًا من الرّخاء والتطور بفضل أمراءٍ أقوياء[51].

والحقّ أنّ إقبال فئات المجتمع المرابطي بمختلف طبقاتها على اتّخاذ الوساطة سبيلاً لتحقيق طموحاتها ورغباتها،قد فرضه الواقع المعاش،ومن ذلك ما كانت عليه عدوة الأندلس من بعدٍ عن مركز السلطة،وانعدام الثّقة بين الحاكم والرعية،ومازاد الأمر سوءًا اشتطاط دولة الفقهاء وولاّتها في جمع الأموال،ممّا ولّد نوعًا من التذمر والنفور،ولعلّ رسائل الوساطة قد كشفت لنا نوعًا من مشاعر الخانقين عليها[52].

وممّا يزكي هذا المقصد ذلك الحشد الكبير من رسائل الوساطة والتزكية التي أرسلها ابن أبي الخصال إلى ولاّة الأمور،يظهر فيها تكافله الإجتماعي وصلاته الواسعة بأهل المغرب والأندلس،كما أنّ نزعته وحبّه للخير دفعه إلى إصلاح مجتمعه وربط الرعية وأحوالها بالسلطة الحاكمة.

الملاحظ أنّ رسائل بن أبي الخصال لا تختلف كثيرًا عن الرسائل الديوانية التي اتّبعت قاعدة موحّدة في عمليات التأليف من الناحية الشكلية والفنّية الأدبية،حيث نجده يستهل رسالته بمقدّمة بها البسملة والإستفتاح مع تحديد المرسل والمرسل إليه،ثمّ ينتقل لعرض موضوع الرسالة الذي يدعمه بالدلائل والقرائن لإقناع السلطان بما يتوسّط به،ليختمها بخاتمةٍ يَترجى فيها قُبول طلبه[53].

على ضوء ما تقدّم يمكن اعتبار بن أبي الخصال وسيطًا اجتماعيًا،بين القاعدة الشّعبية المتمثلة في العوام من الفئات المحرومة،وبين السلطة الحاكمة في أعلى قمة هرم الدّولة،خاصّة وأنّه عاصر نهاية المرابطين وبداية إرهاصات قيام الدّولة التُومرتية،لذالك فقد تنوعت مظاهر التواصل في رسائله،بإختلاف الفئات الإجتماعية التي توسّط لها،والتي يمكن أن نقسّمها إلى فئاتٍ حسب طبقات المجتمع المرابطي:

1.5 الطبقة الحاكمة:

حظيت هذه الفئة من المجتمع المرابطي بإهتمامٍ واضحٍ من طرف بن أبي الخصال،الذي توسّط للسلطة الحاكمة لقضاء حوائجها المستعصية عليها،لذا كانت العلاقات الواسعة لأبي الخصال وقدرته على الإقناع البلاغي،قد دفعت

الوزراء والكتّاب إلى اتّخاذه كوسيطٍ اجتماعيٍ،لقضاء مصالحهم العديدة،حيث نجده يتوسّط لهم لدى السلطان،بحكم تشابه الوظيفة ومرتبته إذا قورن بأمثاله،ومن ذلك رسالة تزكية في وزير نعته بالكاتب بتقريبه والعناية به،حيث أشار له بقوله: "... الوزير الكاتب مُجمل ذكرك وجزل شكرك...ولو صدقته كُنْهُوده وجزيتهُ بوافي عهده لتزحزحتُ له عن ذروته ونجده...وجعلته إلى ذكره سببًا واستطرادًا..."،ثمّ يضيف في مدحه قائلاً:"... وكيف؟وهذا الفاضل يدُلُ بفضله،ويُدلي بنُبل،وينتظم انتظام الدُرة في سلكه ويسير تحت لوائه ويتحصل في ملكه..."،ثمّ ختم رسالته قائلاً:"... وبالي إلى المراجعة الخطيرة منصرف...وآثرت إقرار الودّ وتمكينه اعْتلقت حجّياً باعتلاقك قميناً..."[54].

توسّط بن أبي الخصال إلى فئةٍ اجتماعيةٍ بارزةٍ في عصره،وهي طبقة الوزراء والكتاب،هونابعٌ من تكافله الإجتماعي مع جميع الفئات،لذا فلا ريب في أن يقضي مصالحها ويرعى حممها،خاصّة وأنّها فئةٌ من نفس الوظيفة كما تدل على علاقاته الواسعة داخل البلاط المرابطي،وقدرته البلاغية التي فاقت أقرانه من الكتّاب،ولعلّ قضاء حوائجهم هو سندٌ له في الأيّام المقبلة.

وله رسالةٌ اخرى في تزكية الوزير الكاتب أبو محمّد بن جزي،الذي يرفع من شأنه إلى شخصٍ لم يذكر اسمه من أهل الفضل والمكانة،ويسأله الإسعاف فيما قصد إليه،والموضوع المتوقع يتعلّق بخطوبة،حيث نوّه إلى الكاتب الوزير بقوله:"... الوزير الكاتب الجليل والخطير الحسيب المثيل أبو محمد بن جُزي وافد عُلاك ومقتبس سناك..."،ثمّ أشار إلى مقصده قوله :"...شخص نحوك بعد استشارة أنعمها واستخارة رواها وقدمها وثقة بجلالتك مهدها ووطأها..."،وفي نهاية رسالته أشار إلى موضوع الخطبة قائلاً:"... والحمد لله الذي جعل من الماء نسبًا ووصل بين الأكّفاء حسبًا وسبّب إلى الالتئام والانتظام سببًا..."[55].

المستشف من هذه الرسالة هو إظهار كاتب الأندلس لتكافلٍ اجتماعيٍ واضح،مع الوزراء ذوي المهنة المشتركة،وتزكيته للعالم الفقيه هو اعترافٌ صادقٌ بعلمه رغم رجوع الأمر إلى الحاكم،كما أشار إلى قدسية رباط الزواج وضرورة الإلتزام برأي الشّرع فيه،وهذا راجعٌ لحرصه على سلامة الفتوى،خاصّة إذا تعلق الأمر بالمشكلات الأسرية،ناهيك أنّ رسالته تدل على اطّلاعه الواسع على مستجدات الأمور من النوازل،وحالة مجتمعه التي عرفت تطورًا في مجال الدّين والشّرع.

ولم تقف وساطة بن أبي الخصال عند الوزراء والكتّاب،بل شملت القضاة أيضًا،ومنها رسالةٌ يتوسّط فيها إلى أحد القضاة موضوعها،ضم شخصٍ في دائرته للعمل عنده ويخبره بموافقة هذا الشخص من له الأمر في مثل هذا الحال على ذلك،حيث أشار إلى هذا الشخص بقوله:"....وفلانٌ قد وعدني بالإجمال في أمره والتوفية لبّره والرغبة في أن يُسند إلى قمتك ويُعتد في جملتك،ويأوي إلى حماك..."[56].

من خلال هذه الرسالة يبدو أنّ بن أبي الخصال أراد بها قضاء حوائج العامّة وهي العمل بالقضاء،ممّا يؤكّد علاقاته الواسعة بدواوين الدّولة خاصّة ديوان القضاء الذي يكتسي أهميةً بالغةً،وما نستسيغه من كلامه أنّه قد ألزم القاضي بتطبيق التوصيات التي حملها إليه من هرم السلطة،ولعلّ توسّط هذا الرجل بأبي الخصال راجعٌ لا محالة إلى حساسية الوظيفة وصعوبة نيلها.

وتتواصل رسائل بن أبي الخصال إلى التوسّط لفئة الجيش لدى السلطة،ومنها الرسالة التي بعثها لرجل ذو منصب رفيع،في حقّ رجل من الجيش وصفه بالشدّة والبأس،وأنّه محاربٌ قديمٌ،حيث أشار إلى طلبه قائلاً:"...وهو من قوم يمُتُون بحرمة ويدلُّون بسالف انقطاع وخدمة وأحب التشرف بديوانه والمُثول بإيوانه..."،ثمّ يمدح هذا الرجل قائلاً:"...ولأبي فلان....نفسٌ حرةٌ ومواقفٌ للأعداء مُرّه..."[57].

ما يستشف من هذه الرسالة هو التضامن الذي أبداه بن أبي الخصال مع هذا الرجل من الجيش،وتكافله مع جُند الدّولة المرابط على تخومها،والظّاهر أنّ ابي الخصال من الذين يبدون اهتمامًا بالجهاد وحماية الثغور،لذا نجده

يتوسّط له بالخدمة في الجيش،وقد أبدى رغبةً في قضاء حاجته،كما هي دليلٌ على علاقاته الواسعة حتّى مع قادة الجيش.

وله رسالةٌ اخرى يتوسّط فيه لفارسٍ مجاهدٍ كي يُعطي له فرسٌ من الخيل الموقوفة من أهل الخير،حيث أشار إلى الفارس واصفًا إيّاه بالشجاعة قوله:"...وهو من كبار الفرسان وذوي البسالة..."،ثمّ قدّم طلبه قوله:"... وهو-أعزك الله - ممّن يجب حملُه على فرسٍ ظاهرٍ ليتوصّل به إلى نكاية العدو ويوردهُ موردهُ من الغارات يشُنها عليهم والبلايا يُزجيها إليهم..."[58].

يظهر من خلال هذه الرسالة أنّ ابي الخصال قد أبدى تعاطفًا مع الفارس،وأظهر ارتباطه بالجهاد ومواجهة العدو،لذا اهتم بالجيش ومعدّاته خاصّة فيما تعلّق بالفرسان،ولعلّ هذه الإشارة قد تدل على تهلهل تنظيم الجيش،ممّا دفع صاحب الفَرس لمراسلة بن أبي الخصال كوسيطٍ لقضاء مآربه دون الإستعانة بأصحاب مهنته من الجيش.

في نفس الوقت حظيت فئة العلماء والفقهاء بإلتفاتة من ابي الخصال الذي توسّط لها لدى السلطة،نظرًا لنباهته وفطنته التي فاقت أهل عصره،وهذا ما جعل العديد من أطياف المجتمع المرابطي تتقرّب إليه وساطة وتزلّفًا إلى السلطان لقضاء مآربها الدنيوية،كما أنّ ارتباطه الشديد بهم واحترامه وتوقيره لمكانتهم قد دفعته إلى مراسلة ذوي الشأن بخصوصهم،حيث نجد له رسالةً في تزكية فقيهٍ وهو أبو عبد الله بن جابر،لذا أشار إلى علاقته به قائلاً:".... الوزير النّبيه والحاج الفقيه أبو عبد الله بن جابر،مُعظّمُك وصديقي وصفيّ وجاري فإنّه أحسن النيابة..."،ثمّ عرّج بمدحه قوله:"... ثمّ عقّب حجّه المبرور بزيارة القبر المعمور...وقد كانت له بمصر إقامة اتّصلت أيّامها،فلاحت له آثارها وأعلامها،وعنده من كلّ نادرة مُستفادة..."،ويضيف في مدحه قوله:"...وقد علمت... ماله وسلفه.. من تحرك ونباهة وأثرة ووجاهة...يشهد لديها الصغير والكبير،ولا يدفعه عنها العير والنفير..."[59].

قد أبدى كاتبنا ابن أبي الخصال روحًا علميةً من خلال تكافله مع أهل العلم والمشورة،وهو دليلٌ على اعترافه لأهل العلم بعلمهم،لذا نجده في عديد المرات يشيد بما له من علم ومعرفة،ودليلٌ على علاقاته الواسعة بكلّ أصناف الطبقات الإجتماعية،وكأنّه مصلحٌ اجتماعيٌ في زمن تدهورت فيه الدّولة اللّمتونية واقتربت من نهايتها،وقد أظهر بن أبي الخصال عنايةً واسعةً بالفقيه،لذا فقد أردف رسالته هذه برسالة شفوية أخرى تأكيدًا على قضاء مصالح الفقيه واحترامه له.

2.5 الطبقة العامّة:

البارز أنّ بن أبي الخصال قد اهتم بالفئات الدّنيا من المجتمع المرابطي،نظرًا لما تعانيه من ويلات الظلم والإضطهاد من طرف السلطة الحاكمة ومحبي الثروة وجمع المال،لذا كانت تحت طائلة التعسف وفرض الضرائب،بإعتبارها مصدرًا مهمًا للجباية المالية التي وجّهت لخدمة المصالح الذاتية للحكام وأصحاب الإقطاعات والملاّك الكبار.

ومن أهم الفئات الدّنيا التي توسّط لها كاتبنا فئة الفلاحين الصغار،حيث يقوم بالتوسّط لفلاح برسالة إلى شخصيةٍ مرموقةٍ لم يذكر اسمها،لرجل اكترى أرضاً في ذلك العام وكان الموسم غير طيّب،والظّاهر أنّ هذا الفلاح أراد إبراء ذمّته من الكراء تفضّلاً ومراعاة حال الجدب،ونقص الثمرات حيث يقول في حقّه:"...وفلانٌ جاري واملُه المترامي على فضله،تكلّف في قصدي شقاً واستوجب إلى حُقُوقه القديمة عندي حقّاً..."،ثمّ يضيف شارحًا حاله قوله:"...وشرحُ قضيته التي أشخصتهُ والهموم تنفخُه والسّموم تُلحفه وتلفحه..."،وقد أضاف إلى طلب الفلاّح قوله:"...ولا بلاغ له اليوم إلاّ بشفاعة منه كريمة تُدركه،وعناية تتلافى رمقهُ وتُمسكُه..."،ثمّ ختم الرسالة إلى تطلّعه بالتوسّط لحاله قائلاً:"... وعندي من التطلّع إلى تيسُرهُ للإجمال وتوفُره على التهمم والاهتبال ماهو شُغلُ الخاطر ونصْبُ البال وله الطّول الأعمُّ في وجلٍ عني يرفعه وأملٍ عندي يشفعه..."[60].

يُستشف من هذه الرسالة ذلك التكافل الإجتماعي الذي أظهره بن أبي الخصال،واهتمامه الزائد بطبقة قد يكون ذكرها منعدمًا بالمصادر التّاريخية،حيث قام كاتبنا بنقل وضعٍ اجتماعيٍ نابعٍ عن عدم قدرة الفلاّح على قضاء حوائجه وردّ ماله الضائع من عملية الكراء،وهو دليلٌ على أنّ بن أبي الخصال كان مطلّعًا بأحوال الرعية خاصّة أيّام القحط والجذب ونقص الثمرات،وصورة على انهماك السلطة الحاكمة في أمور أخـــرى دون الرعية.

ومن هنا يكون بن أبي الخصال قد نقل صورة الرعية ومعاناتها إلى الطبقة الحاكمة،من خلال عرض بعض مظاهر الظلم والاضطهاد،إمّا من طرف الولاّة أو أمراء الولايـــات،وهذا ما يفسّر لجوء الفـــلاّح إلى التوسّط برسالة من بن أبي الخصال كونه من علية القوم ومقرّبٌ من السلطة.

وتتعدى وساطة بن أبي الخصال الفلاّحين إلى أهل الصّنائع من الطواحين،ومن ذلك رسالتـه إلى رؤساء لإحدى الطواحين لرجلٍ أراد أن يكون وكيلاً بهـا،حيث أشار إلى طلبه قائلاً:"...نعم ،حامل هذه الرّقعة -جبره الله - له أطفالٌ لا يجد لهم ذواقاً قد مدوا إليـه أعناقاً وأحداقًا...ورغبتي...أن يكون للفار أكيلاً في إحدى الأرحاء وكيلاً..."،ثمّ يضيف إلى تحقـيق مطلبه قوله:"... ويأتـي الرّزق من بابه فإن رأيت أن تُبرم قضيته،وتُنفّذ وصيته...تُفتـح له أبوابُ الثواب ويرتقي في الأسباب..."[61].

يُظهـر بـن أبي الخصـال مـن خـلال رسـالته تكـافلاً اجتماعيًا واضحًا مـع بعـض الأشـخاص الـذي يسـعون إلى المناصب تكسّبًا في الرزق وإعانة أسرها،ممّا يدل على احتكاكه المتواصل بالطبقة المحرومة من الفقراء وأهـل العوز،كما يبدو من رسالته ذلك الحسّ الإجتماعي المرهف وتقرّبه من العوام دون رياء،إضافة إلى إشارة إلى أهمية الطواحين كأداةٍ مهمةٍ في الحفاظ على لواحق المخزن الدقيق،وأهميتها في توفير الغذاء للرعية،ناهيك عن انتشار البطالة بالمجتمع المرابطي نتيجة أوضاع سياسيةٍ واجتماعيةٍ واقتصاديةٍ فرضها الواقع المعاش بالدّولة.

كما لم نجد في رسائله الرسمية إلاّ إشارةً وحيدةً لإحدى الرسائل التي بعثها إلى شخصٍ مجهولٍ يتولّى الجباية اشتطّ في جمع الضرائب من شخصٍ لايذكره،حيث يقول عنـه:"...وقد علمت أنّ الزيادة على فلان إنّما كانت ضِرارًا وحميةً تُورد نارًا وترحلُ جانبها بخزية وتتركُ عارًا..."،وقد حـذّر بن أبي الخصال من هذا الفعل بقوله:"...فمن الزيادة على عِلْم كما يجلب نقصاً وقد يعود تناهي النفاق كسادًا وبخساً..."[62].

وممّا يستدعي الإنتباه،هذه الإشارة التي نوّه لها في جور بعض الولاّة في جمع الضرائب وزيادتهـا على فوق العادة،ممّا ألبّ عليه الرعية وحاولت التقرب من السلـطان عن طريق بن أبي الخصال للإبلاغ عنها،والظّاهر أنّ كاتب الأندلس قد أظهر تعاونًا وتكافلاً في هذا،ودعوةً صريحةً إلى التخلي عنـها حفاظًا على المجتمع المرابطي،

كما تفيدنا هذه الرسالة في الكشف عن ضعف السّياســة الجبائيـة للدّولة المرابطية وعدم تحكّمها في فرض الضرائب على الرعية؛ممّا ولّد سخـطًا من الرعية دفعها بالوشاية لأبي الخصال للإستفسار عنها.

وتزيد وتيرة التكافل الإجتماعي لدى بن أبي الخصال خاصّة أيّام الجوائح التي تصيب الرعية،نظرًا لما كانت تعانيه الرعية من إهمال من طرف السلطة أو من بعض أمرائها،لذا فقد كان لكاتب الأندلس سهمٌ وافرُ الحظِ في التدخل لحلّ هذه المشاكل،ومن نماذج ذلك رسالةٌ بعثها إلى شخصيةٍ لم يحدّد صفتها،لغرض إسعاف صديقٍ له من جيرانـه،بعد حائجة أصابتـه في ماله أو نقصـت من مؤونتـه،حيث استهل حديثه بذكر جاره قائلاً:"...ويتـأدى من فلان جاري... وبيني وبينه من الأذمـة الوكيـدة والصُحبة الحميدة والمودّة القديمة التليـدة،ما يقتـضي مُساهمته في أحواله..."،ثمّ عرّج بذكر الجائحة التي أصابتـه وأفقرته وأضرت بماله في قوله:"...وغيرُ خافٍ عنـك ما نالـــهُ في مُدة العمل من الجوائـح المُجحفة والأعوام المُخْلفةِ والنوائب المُتلفةِ ..."،ثمّ ختم رسالته بدعوة لإسعاف حاله قولـه:"...وقد أنزلت هذه النازلة... لتضـع عني إصْرها وتقلّدني فيه اليد الجميلة وشُكرها..."[63].

يتّضح لنا من هذه الرسالة بروز النزعة الإنسانية لأبي الخصال وتعاطفه مع الرعيـة أيّام الجوائح التي أصابت الدّولـة اللّمتونيـة،والتي نعتـقد مـن خـلال رسـائله أنّ السلطـة لـم يكـن لهـا اهتمـامٌ بمـا تخلّفه،خاصّـة على الصـعيد الإجتماعي وحتى النّفسي،إلاّ أنّ ذلك لايمنع من وجود أمراء كان لهم سهم وافر في خدمة الرعية زمن الجوائح والكوارث المختلفة.

ومهما يكن من أمر فإنّ بن أبي الخصال قد أظهر علاقـاته الطيبة مع جيرانه،والتي بدت واضحةً من خلال تقربه للسلطة الحاكمة لقضاء حاجتـه،وإشارته إلى المعاناة التي تكبّدتها الرعية خاصّة ظاهرة الفقر والعوز التي بدت واضحةً من خلال مناجاته لإسعاف جاره الذي أصابه الهمّ والغمّ جرّائها.

علاوةً على هذا فقد أضاف بن أبي الخصال رسالةً أخرى بتوفير الرعاية لرجل أصيب في ماله،وفيها تنويهٌ بعلاقته الطيّبة بين الكاتب والمرسل إليه،حيث يصف حاله:"...في أمر الرجل المُـصاب بماله – جبره الله -استنفذت لـه وُسعي وبلغتُ فيه جهدي ولو أتت قُدرتي على جميع ما أمّل لما عـاد إلا ظافرًا..."،ويُشير إلى آماله في حصوله على قوته قوله:"... وأنا بعدُ مُعتملٌ فيما يهواه...متـطـلع إلى وطـر من أوطـاره يتسببُ،وحقٍّ من حقوقه يترتبُ..."[64].

إنّ هذه الالتفاتة الوجيهة من أبي الخصال دليلٌ على تكافله الإجتماعي،وعلاقاته الوطيدة مع أصدقائه من ذوي الشأن،لذا نجده يصر على توفير الرعاية لهذا الرجل،ووصل به المقام في هذا إلى التخفيف حتى على وجيبةٍ عن أحد يعرفه برسالـة وساطـة،والتي صرّح بهاكثرة هذه الظاهرة محلّ الحديث،حيث نوه لها قائلاً:"...الشفاعات تتشعّبُ... والرغبة إن تيسـّرت في تخفيف حظّه من هذه الوجيبة والكُلفة الشاملة القريبة..."[65].

ومـن الأهميـة بمكـان،أنْ نُـورد أوّل إشـارةٍ لكثرة الشـفاعات على حـدّ قولـه،فلا نعلـم إن كـان قـد سـئم منهـا لكثرتها؟،أو أنّه تعرض للإنتقاد من السلطة نظرًا لإلحاحه على تأديتـها؟،أو أنّه أراد بها تكبرًا نظرًا لمنصبـه وعلاقاته الإجتماعيـة؟ولعلّ إقـدام بـن أبـي الخصـال على هـذا التصـريح،هونابـعٌ عـن تـدهور الوضـع الإجتمـاعي بالدّولـة المرابطية،وعـدم قدرتها على تلبيـة مطالب الرعيـة،فأخذ على عاتقه الوساطة الإجتماعية بين الحـاكم والمحكوم نظرًا لمجانبته السلطان وقدرته على الإتّصال بدواوين الدّولة.

ونظرًا لتعقد مطالب الحياة اليومية وما تعانيه الرعية من تهميشٍ من طرف السلطة،فقد كان لإبن أبي الخصال دورٌ كبيرٌ في قضاء المصالح الشخصية والدنيوية،وهذا ما توضّحه رسائل الوساطـة والتزكيـة،ومن أمثلة ذلك تلك الرسالة التي بعثها ابن أبي الخصال إلى دار صديقٍ علي الشأن،أراد أن يتوسّط لرجل يحمل رسالة توصية من شخصية أخرى،فوجده نائمًا،ممّا دفعه إلى اختصار الكلام والإشارة إلى الواقعة دون مماطلة،حيث يقول:"...لتُنفذ ما يقتضيه جميـل رأيك فيه مـن البـّر والتنويه...فانك ترتهن بذلك شُكري وشُكره وتخلُدُ في الرّقعة ببلاغتك الرفيعة ذكره..."[66].

يبدو من هذه الرسالة أنّ بن أبي الخصال أرد أن يقضي حاجـة الرجل عنـده،متبّعًا أسلوبا مختصرًا بليـغًا قويمًا رطب المعنى،وإن كان لم يذكر صاحب الرسالـة أو مُتلقيـها،ولكنّه عبّر عن حالة الرجل المتأزّمة متّخـذًا أسلوب الوساطة لقضائها.

وفي رسالةٍ أخرى خرج نطاقهـا من المغرب إلى الأنـــدلس،لقضاء حاجة رجل أراد الوصال مع شخصٍ آخر بمدينة سرقسطة،حيث لا يذكر اسمه قائلاً:"...أنّ ذلك الرجل السرقُسْطي قد وصـل وكنت مُنشغل البال بغيبته مُشفقاً من طول احتباسه حذرًا من خيبته..."[67].

ويبدو أنّ لإبن أبي الخصال علاقاتٌ واسعـةٌ بالبـــلاد الأندلسيـة،حيث كان أملـه ربط الوصال بين الرجـلين،وهي صفةٌ إنسانية ارتبطت به،ودليلٌ على اهتمامه بربـط أواصر الأخـوة والعلاقات الطيّبة بين العدوتين.

كما توسّط لرجل وتشفع له لعدم نقله من منصبـه إلى مكـانٍ آخر قوله:"...ولعل الشّفاعـة الكريمة تُنْشطُه من عِقاله وتحُطُ من أثقاله وتُعفيه مما حاولهُ من انتقاله..."[68].

وفي رسالة مهمّة لإنجاح عقد زواج لم يتم،بعث إلى المرسل وعيدًا بتنفيذها قوله:"...كتبتُ...عمّا تعلمُ وعمّا يجبُ ويلزمُ..."،ثمّ أشار إلى ضرورة تطبيق نصيحته بالتطبيق قوله:"...يُبقيك لائح سمْت التوفيق قابلاً نصيحة الصديق قائمًا بأعباء الحقوق..."،كما أشار بعلمه بالقضية قوله:"...وقد علمت...ما فشا عندنا... من إيجاب الصّهر بينك وبين فُلان..."،ثمّ ختم رسالته بالتدخل بالأمر قائلاً:"..فرأيت أن أُعزّز وأغْبط وأحكم عند هذا الحال وأربط..."[69].

الملاحظ من هذه الرسالة تلك العلاقات الوطيدة التي ربطها بن أبي الخصال مع عامّة الرعية واطّلاعه الواسع على أعبائها المختلفة،لذ فتدخله لحلّ عقد الزواج مردّه لدراية بعلم الحديث والفقه والسنّة ومحاولة لإصلاح ذات البين وتبيان الحكم السليم في مجال الشّرع،كما أنّ هذه الرسالة قد تظهر بعض الإختلالات الشّرعية والجدل القائم أيّام الدّولة المرابطية،حتى الوصل الأمر إلى بن أبي الخصال أحد أنبه كتّاب السلطة،فكان يكفي الرجوع إلى أحد العلماء دون وساطة!؟،ولعلّ ذلك راجعٌ لتعسّف الكاتب في إبرام عقد الزواج،لحزازة بينه وبين الشخص الآخر؟.

وبلغ الأمر من رسائل الوساطة التزكية بأشخاص لدى ولاّة الأمور والشخصيات المهمة،حيث يشير إلى هذه الظاهرة في رسالته التي بعثها إلى أحد الأعيان في تزكية صديق،وهي رسالة معزّزةٌ برسالة أخرى كتب بها كاتب آخر يتوسّط للصديق نفسه.

استهل رسالته بمدح صاحب الطلب قوله:"...ولمّا لقيت فُلاناً...لقيت المجد وجددنا ذلك العهد،ونظّمنا الشمل،ووصلنا الحبل... "،ثمّ يقوم بمواساة هذا الشخص قوله:"... وحثثت إلى الغاية القصوى وحثّ أشعرتني غُربتُه ارتماضًا وأوْمضت لي إلى حنينه الذي يكتمه ايماضًا..." ثمّ ختم رسالته توسطا له قائلا:"...فلا تنس... من بذكرها عني...وقد خاطبك فتلانٌ يخصُ ما حضضْت ويعرض من هذا الأمر ما عرضت..."[70].

والظّاهر من خلال هذه الرسالة أنّ بن أبي الخصال قد أضاف رسالةً أخرى على الرسالة الأولى كتوصيةٍ في نفس الشخص،وهذا راجعٌ إلى بلوغ أمره لدى السلطة،وقدرته على التوسّط والتزكية له،كما أنّ هذه الرسالة هي تأكيدٌ لعلاقاته الواسطة ونفوذه لدى الأمير المرابطي،ودليلٌ على تكافله الإجتماعي في قضاء مصالح الرعية من العوام والخواص.

وله رسالةٌ أخرى في تزكية رجل عند ذي جاه لايذكره،حيث يثير إلى فضائل الشخص ومدحه كي يتقرّب إلى السلطان لقضاء حاجته،وهي صورةٌ من شيمه وتكافله الواسع في من يرى فيهم الصلاح والفلاح للدّولة المرابطية حيث يصفه قائلاً:"...وألفيتُ عند أبي فلان اعترافاً بفضائله وانقطاعاً إلى أذّمته ووسائله..."ويضيف من فضائله تزكية له:"...وقد تقدم تنبيهي على الصّفيِ الوليّ الوزير أبي فلان... وأنا أستحفضه مجدهُ وعُلاه..."[71].

وبذلك فإنّ هذا الكمّ من رسائل الوساطة والتزكية هو دليلٌ على قدرة الرجل على حلّ مشاكل الرعية التي استعصت عليها الأمور،حيث نقل انشغالاتها للسلطة الحاكمة بفضل علاقاته الواسعة ونفوذه في البلاط المرابطي وقدرته البلاغية،وهذا الأمر هو ماجعله مُصلحًا اجتماعيًا في زمن كانت فيه الدّولة المرابطية تتكبّد عناء المشاكل الداخلية والخارجية التي تُنبىء بسقوط هرم الدّولة.

6.خاتمة:

عُصارة القول،أنّ انتشار ظاهرة الوساطة ولو بشكل نسبيٍ في المجتمع المرابطي،مردّها إلى تردي الأوضاع المختلفة التي فرضتها تغيّر موازين القوى بالمنطقة،لذا فهي تعبيرٌ صريحٌ على اتّساع الهوة بين الحاكم والرعية ومدى التذمّر الذي حملته من سياسة الدولة،كما أنّ إقبال ابن أبي الخصال على التوسّط بالرعاية للعديد من الفئات الإجتماعية راجعٌ إلى خصوصيات الواقع المعاش،وارتباطه الوثيق واطّلاعه الدائم على الرعية وأحوالها،إضافة لملكته البلاغية وقُدرته على الإقناع،جعل النّاس يتهافتون على وساطته لإصلاح ما طالته أيّادي الحكام تحقيقًا لمصالحهم ومآربهم المختلفة،ولعلّ وجود هذه الظاهرة بالمجتمع المرابطي في مراحل متفاوتة يدل على أصالتها وتجذّرها في التّاريخ

الإجتماعي،لذا فما كانت الوساطة إلاّ عيّنةً من عددٍ كبيرٍ من الظواهر الإجتماعية التي مسّت المجتمع المرابطي والتي تحتاج إلى مزيد من البحث والدّراسة.

7.الهوامش:

01-إبن منظور،جمال الدّين أبو الفضل(ت 711ه/1311م)،لسان العرب،دار المعارف،القاهرة، د.ت،ص:4833.

02- أمال سالم عطية،السفارات في المغرب الإسلامي خلال القرنين السّابع والثامن الهجريين(ق13-14م)،أطروحة دكتوراه،كلّية العلوم الإنسانية والإجتماعية،جامعة مصطفى اسطمبولي،معسكر،1436-1437ه/2015-2016م،ص:17-27.

03-خالد محمّد عبد الله وأحمد صالح محمّد،دور العلماء في الحياة الإجتماعية في عهد الموحّدين،مجلّة الدّراسات التّاريخية والحضارية،المجلّد الثالث،العدد10،جامعة تكريت،1432ه/2001م،ص:223؛أمال سالم عطية،المرجع السابق،ص:109.

04- ابراهيم القادري بوتشيش،مباحث في التاريخ الإجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين،دار الطليعة للطباعة والنّشر والتوزيع، بيروت،1418ه/1997م،ص:119-120.

05- إبن عبدون،محمّد بن أحمد التيجيبي(ت في النّصف الأول من القرن6ه/12م)،رسالة إبن عبدون،ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب،تحقيق ليفي بروفنسال،مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية،القاهرة،المجلّد الثاني،1375ه/1955م،ص:16.

06- حسن علي حسن،الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس،ط.1،مكتبة الخانجي مصر،1401ه/1980م،ص:37-40.

07-ابراهيم القادري بوتشيش،المرجع السابق،ص:121؛حسن علي حسن،المرجع السابق،ص:329؛عيسى بن الذيب،المغرب والأندلس في عهد المرابطين دراسة اجتماعية واقتصادية 480-540هـ/1056-1145م)،أطروحة دكتوراه، كلّية العلوم الإنسانية والإجتماعية،جامعة الجزائر،1429-1430ه/2008-2009م،ص:99ومابعدها.

08- إبن خلدون، عبد الرحمن (808ه/1405م)،مقدّمة ابن خلدون،ضبطه خليل شحادة وراجعه سهيل زكّار،دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت،لبنان، 1421ه/2001م،ج1،ص:308.

09- بن خاقان،أبو نصر الفتح بن محمّد(ت569هـ/1173م)،مطمح الأنفس ومسرح التأنّس في مُلح أهل الأندلس،تحقيق محمّد علي شوابكة،ط.1، مؤسّسة الرسالة،بيروت،1403ه/1983م،القسم الأوّل،ص:166، 169.

10- ابن بسّام الشنتريني،أبو الحسن علي(ت542هـ/1148م)،الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،تحقيق إحسان عبّاس،دار الثقافة،بيروت،لبنان،1417ه/1997م، القسم الثاني،المجلّد الأوّل،ص:240.

11- ابراهيم القادري بوتشيش،المرجع السابق،ص:138؛عيسى بن الذيب،المرجع السابق،ص:105.

12- ابراهيم القادري بوتشيش،المرجع السابق،ص:140-141.

13- ابن الأبّار،أبو عبد الله محمّد بن عبد الله القضاعي البلنسي(ت594هـ/1120م)،المعجم في أصحاب القاضي الصدفي،تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط.1،دار الكتاب المصري/دار الكتاب اللبناني، القاهرة/ بيروت،1410ه/1989م،ص:152(ت رقم125)؛ابن بشكوال،أبو القاسم خلف بن عبد الله (ت578هـ/1183م)،كتاب الصلة ومعه كتاب صلة الصلة لأبي جعفر احمد بن إبراهيم الغرناطي (ت708هـ/ 1308م)،تحقيق أبو العلا شريف العدوي،ط.1،مكتبة الثقافة الدّينية،القاهرة،1429هـ/2008م،المجلّد2،ص:224(ترجمة رقم1231)؛ابن سعيد،أبو الحسن علي بن موسى(ت685هـ /1286م)،المغرب في حُلى المغرب،حقّقه وعلّق عليه شوقي ضيف، ط.4،دار المعارف، القاهرة ، 1416هـ/1995م، الجزء02، ص:66.

14- المقري،شهاب الدّين أحمد بن محمّد التّلمساني(ت1041هـ/1631م)،نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،تحقيق إحسان عبّاس،دارصادر، بيروت، 1388هـ/1968م،المجلد01،ص:294؛ابن حزم،محمّد بن علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي(ت456هـ/1064م)، جمهرة أنساب العرب،تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال،دار المعارف ،مصر،1368ه/1948م، ص:309.

15- **غَافِق**:يتّصل نسبهم بغافق بن شاهد بن علقمة بن علّ بن الديث بن عدنان،وتوجد ديارهم بالجوف شمال قرطبة بالأندلس.ينظر:ابن حزم،المصدر السابق، ص:309.

16- **فُـرْغَلِيط**:بضمّ أوّله وسكون ثانيه وغين معجمة مضمومة ولا مكسورة وياء ساكنة وطاء مهملة،قرية من نواحي شقورة بالأندلس.ينظر:ياقوت الحموي،شهاب الدّين أبي عبد الله ياقوت الرومي البغدادي(ت626ه/1229م)،معجم البلدان،دار صادر ،بيروت، 1397ه/1977م،المجلد الرابع،ص:254.

17- **شَقُورة**:بفتح أوّله وبعد الواو الساكنة راء،مدينة بالأندلس شمال مرسية.ينظر:نفس المصدر،المجلد الثالث،ص:355.

18- **جَيّانْ**: بالفتح ثمّ التّشديد وآخره نون، مدينة لها كورة واسعة بالأندلس تتصل بكورة ألبيرة مائلة عن ألبيرة إلى ناحية الجوف في شرقي قرطبة...وهي كورة كبيرة تجمع قرى كثيرة.ينظر:نفسه ،المجلد الثاني،ص:195؛ابن بشكوال، المصدر السابق،ج02، ص:224؛ابن أبي الخصال،أبو عبد الله الغافقي الأندلسي(ت540هـ/1145م)،رسائل ابن أبي الخصال، تحقيق محمّد رضوان الداية،ط.1،دار الفكر،دمشق/ سورية،1409هـ/1988م، ص:09(مقدّمة المحقق).

19-ابن الخطيب،لسان الدّين أبو عبد الله محمّد(ت 776هـ/1374م)،الإحاطة في أخبار غرناطة،مراجعة وتقديم وتعليق بوزيان دراجي،دار الأمل للدّراسات والنّشر والتّوزيع،الجزائر،1430هـ/2009م ،الجزء03،ص: 72؛ابن بشكوال، المصدر السابق ،ج02،ص:225.

20- ابن الأبّار،المصدر السابق،ص:152؛ابن بشكوال، المصدر السابق ،ج02،ص:224.

21- المراكشي،أبو محمّد بن علي عبد الواحد(ت647هـ/1249م)،المعجب في تلخيص أخبار أهل المغرب،شرحه واعتنى به صلاح الدّين الهوّاري،ط.1،المكتبة العصرية،بيروت،1427هـ/2006م،ص:134؛ابن سعيد المغربي،المصدر السابق،ج2،ص:68.

22-ابن الأبّار،أبو عبد الله محمّد بن عبد الله بن الحسن القضاعي البلنسي (594هـ/1120م)،التكملة لكتاب الصلة،اعتنى بطبعه وعلّق على حواشيه ألفرد بل ومحمّد بن أبي شنب،المطبعة الشرقية،الجزائر،1337هـ/1919م،ص:44-45(ترجمة رقم99).

23- سعد عيسى فوزي،أبو عبد الله بن أبي الخصال رئيس كتّاب الأندلس،دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية/مصر،1410هـ/1989م،ص:42.

24-ومن شيوخه وأساتذته نذكر:أبو الحسن بن مالك اليعمري قاضي أبده،وأبو الحسين السرّاج،أبو محمّد بن عتاب،أبو بحر الأسدي، أبو بكر بن أبي الدوس،أبو تميم العز بن بقنه،أبو بكر بن غالب ابن عطيّة،أبو الحسين بن الباذش،أبو بكر بن سابق الصقلي،ومن أهل ألمرية أبو علي الصّدفي الذي أخذ عنه بعض كتب الحديث،أبو الحسن بن اللوّان في القراءات،أبو علي الغساني،إبن أخت غانم،أبو عبد الله المازري وغيرهم كثير .ينظر:ابن الأبّار،المعجم، ص:152.

25- إبن بشكوال، المصدر السابق،ج02،ص:225؛ إبن الأبار، المعجم، ص:153.

26- ابن بسّام الشنتريني،المصدر السابق،القسم الثالث،المجلد01،ص: 784.

27- المراكشي، المصدر السابق، ص:132.

28- ابن الأبّار، المعجم،ص:152.

29- ابن بشكوال،المصدر السابق،ج02،ص:225.

30- المراكشي، المصدر السابق، ص:134.

31-ومن مؤلّفاته نذكر:كتاب سراج الأدب،كتاب ظلُ الغمامة وطوقُ الحمامة في مناقب من خصّه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكرامة، رسالة لمحة البارق،كتاب المنهج في معارضة المبهج،ديوان رسائله،وعدّة رسائل إخوانية وديوانية مختلفة.ينظر:المقري، المصدر السابق،ج03،ص:184؛ابن خير،أبو بكر بن محمّد بن خير الأموي (ت575هـ/1179م)،فهرسة ابن خيّر الإشبيلي،ط.1،دار الكتب اللبنانية،بيروت/لبنان،1419هـ/1998م،ص:345(رقم1015- 1016)،ص: 374(رقم1177)،ص:375-376(رقم1182-1183)؛ المراكشي،المصدر السابق،ص:134؛ابن الأبار، المعجم،ص:153.

32- هو أبو يحي أبو بكر بن أبي عبد الله محمّد بن الحاج المشهر بابن الحاج،كان أبوه أبو عبد الله من أسرةبني تاشفين ومن كبار قادة المرابطين بالأندلس والمغرب،وكان مقرّبا لأبي الخصال،وإلى أبيه عبد الله،توفي بمعركة ألبورت سنة508هـ/1114م،ضدّ ابن رذمير (ألفونسو الأول ملك أراغون).ينظر:ابن عذارى المراكشي،أبوعبدالله محمّد(ت بعد سنة712هـ/1312م)،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق إحسان عبّاس،ط.4، دار الثقافة،بيروت/لبنان،1393هـ/1973م، الجزء الرابع،ص: 54.

33-ابن بسام، المصدر السابق، القسم الثالث، المجلّد الأوّل،ص:784؛بن خاقان،أبو نصر الفتح بن محمّد (ت529هـ/1134م)،قلائد العقيان ومحاسن أهل الزمان،حقّقه وعلّق عليه حسين يوسف خريوش،ط.1، مكتبة المنار للطباعة والنّشر،الأردن،1409هـ/1989م،الجزء الأوّل،ص:519.

34- ابن الأبّار، المعجم، ص:153؛ابن بسام، المصدر السابق، القسم الثالث، المجلّد الأوّل،ص:784؛بن خاقان، قلائد،ج01،ص: 519.

35- ابن بسام،المصدر السابق، القسم الثالث، المجلّد الأوّل،ص:784-785، ابن خاقان،قلائد،ج01،ص:520.

36- ابن الأبّار، المعجم، ص:153-154.

37- **سَرقُسطة**:أم الثغر الشرقي،بلدة مشهورة بالأندلس تتصل أعمالها بأعمال تُطلية،غنية بالفواكه والمعادن،مبنية على نهر كبير منبعث من جبال القلاع.ينظر:ياقوت الحموي،المصدر السابق،ج3،ص:212-213.

38- ابن الأبّار، المعجم، ص:153.

39- نفسه،نفس الصفحة.

40- المراكشي، المصدر السابق، ص:132.

41- نفسه،نفس الصفحة.

42- نفسه، ص:135؛وللإطّلاع على الرسالة كاملة.ينظر: حسين مؤنس،نصوص سياسية عن فترة انتقال من المرابطين إلى الموحدين(520-540هـ/1126-1145م)، مجلّة المعهد المصري،المجلّـد الأول،العـــدد الثالث،1375ه/1955م،ص:116-118.

43- المراكشي، المصدر السابق، ص:135.

44- ابن الأبّار، المعجم، ص:154؛ابن الخطيب، المصدر السابق،ج03، ص:74.

45- ابن الأبّار، المعجم، ص:155.

46- هوعلي بن محمّد بن أحمد بن سلمه بن حريق أبو الحسن المخزومي البلنسي، شاعر متبحر بالأدب واللغة،توفي سنة622هـ/1225م،مدح ملوك الأندلس وأخذ صلاتهم،وتصرف بأعمال ديوان .ينظر:الصـــــفدي ،صلاح الدّين خليل بن أبيك(ت764هـ/1362م)،الوافي بالوفيات ، تحقيق واعتناء أحمد الارناؤوط وتركي مصطفى،ط.1،دار الإحياء التراث العربي،بيروت/ لبنان ،1420هـ/2000م،الجزء21،ص:276-277(ترجمة رقم294).

47- ابن الأبّار، المعجم، ص:155.

48- المراكشي، المصدر السابق، ص:135.

49- ابن الخطيب، المصدر السابق،ج03، ص:73-74.

50- نفسه،ج3،ص:76 .

51- المراكشي، المصدر السابق، ص:135.

52- سعد عيسى فوزي، المرجع السابق، ص:86.

53-الربعي بن سلامة،الأدب المغربي والأندلسي بين التأسيس والتأصيل والتجديد،ط.1، دار بهاء الدّين،الجزائر،1431هـ/2010م،ص:166، 168، 170-171، 178.

54- ابن أبي الخصال،المصدر السابق،ص:330-333(الرسالة رقم:80)

55- نفسه،ص:353-354(الرسالة رقم:85)

56- نفسه،ص:138(الرسالة رقم:51)

57- نفسه،ص:287(الرسالة رقم:73)

58- نفسه،ص:114-115(الرسالة رقم:34)

59- نفسه،ص:347-351(الرسالة رقم:83)

60- نفسه،ص:76-77(الرسالة رقم:15)

61- نفسه،ص:120-121(الرسالة رقم:39)

62- نفسه،ص:104-105(الرسالة رقم:27)

63- نفسه،ص:78-79(الرسالة رقم:16)

64- نفسه،ص:87-88(الرسالة رقم:20)

65- نفسه،ص:129(الرسالة رقم:45)

66- نفسه،ص:60(الرسالة رقم:08)

67- نفسه،ص:119-120(الرسالة رقم:37)

68- نفسه،ص:591-593(الرسالة رقم:134)

69- نفسه،ص:598-599(الرسالة رقم:138)

70- نفسه،ص:129-130(الرسالة رقم: 46)

71- نفسه،ص:595-597(الرسالة رقم:136).